بكيت بعدما فقدت عنوستي

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: بكيت بعدما فقدت عنوستي

تـأليـــــــف: بدر الدين تمسة

القـطـــــع: 21X14

تدقيق لغوي: رانيا محمد

سنـة النشـر: 2025

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: (32309 / 2025)

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 687 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-687-6

بكيت بعدما فقدت عنوستي

تأليف

بدر الدين تمسة دليل ضواي

إهداء

إلى أسرتي العزيزة.

إلى أبنائي الغاليين: مؤيد ومؤزر، حفظكما الله ورعاكما.

إلى زوجتي رباب حمر، رفيقة الدرب، وصاحبة الصبر، وشريكة المعاناة والتعب،

لكم تكون البركة ويكون المعنى.

إلى روحي في الدنيا

أبي تمسة دليل، وأمي حمرة شرنوب، وعمتي جدة الباشا،

رحلتم عن دنيانا الفانية، ولكن نوركم بقي في قلبي لا ينطفي.

إلى إخوتي وأخواتي وسواعدي دون فرز غير أني أذكر من عزيزة، وبشير وهادية

وإيمان، كلكم أفاضل، لكم المحبة الثابتة والامتنان الذي لا يذبل.

إلى شهداء الوطن، وإلى من خطفتهم الحرب اللعينة من بين أيدينا،

جدتي نونو عيسى، وحماتي عائشة بشير، عليهم رضوان الله وغفرانه،

وإلى خالي عبد الرحمن شربوب،

السند الذي ظل ظهرا حتى آخر لحظة*

وإلى رفقاء الدرب المهني:

د. نانسي، هند، أحلام، روعي، نعمة، عمر، عبدالله، وكل أعضاء مركز المشورة،

أصدقائي في خدمة الإنسان، وشركاء الضوء.

وأخيرًا،

إلى القراء الأفاضل الذين يمنحون للكلمات حياة، وللكتب روحًا، وللحكايات معنى أبديًا،

إليكم أهدي هذا العمل.

إهداء خاص

إلى مصر وشعب مصر، هذا البلد الطيب والحضن الدافي لكل من يشتكي ويحتاج

دمتم زخرًا،

وإهداء لدار الزيات للنشر،

أسلوبكم الراقي شدني، واحتوائكم للإبداع، ودعمكم للعمل الجميل، وتحفيز

الفكرة والكلمة الطيبة بطيبة، مجموعة عملكم المتعاون من الإدارة ورمزيتها

السيدة الفاضلة شاهندة وأركان حربها المختارين.

وإهداء خفي للجندي المجهول الأستاذ فتحي المزين، أنار الله طريقه إلى الهدى

والرشاد والسعادة الأبدية بقدر ما يقدمه.

عن الكاتب

بدرالدين تمسة دليل ضواي.

كاتب وروائي وناشط سوداني.

يعمل أخصائيًا اجتماعيًا ومرشدًا نفسيًا بمعهد الدعم الاجتماعي النفسي بمصر (بستك)، وهي الشريك التنفيذي للمفوضية السامية لشؤون اللاجئين لأكثر من خمسة عشر عامًا.

كرَّس جهده في مساعدة اللاجئين من مختلف الجنسيات داخل مصر، كمقدِّم مشورة واختصائي اجتماعي في العلاج الأسري والعلاقات الزوجية، إضافة إلى إدارته لمجموعات الدعم النفسي، واهتمامه بالقضايا الإنسانية التي تمثِّل تحديًا للاجئين بمصر.

تُجسِّد الرواية **"بكيتُ حتى فقدتُ عنوستي"** خلاصة هذه التجربة الإنسانية العميقة، وهي ثمرة سنوات من الإصغاء إلى قصص موجعة وواقعية لأشخاص عاشوا الألم في صمت، واحتملوا جراحهم دون أن تُسمَع أصواتهم، الرواية ليست مجرد سرد، بل شهادة حيَّة تنبض بمشاعر الإنسانية.

رواية ***بكيتُ بعدما فقدتُ عنوستي*** تُعدُّ تجربةً إنسانيةً عميقة نسجها الألم، وجاءت كدليل صادق عن معاناة لا تُروَى إلا بدموع الأنثى المقهورة.

هذه الرواية ليست مجرد سرد يحطها الكاتب، بل هي عصارة تجربة مهنية وإنسانية صادقة تعبِّر عن عمق التجربة، وتسلِّط الضوء على آلام صامتة عاشها الكثيرون، وتبرز تفاصيل واقع قاسٍ مسكوت عنه.

هي ليست حكاية امرأة واحدة ماتت بصمت وفي صمت، ولكنها حكاية مجتمع ومجموعة من الأصوات التي بكت حتى فقدت شغف الحياة ومعانيها، وعلى رأس هؤلاء تلك المرأة التي فقدت عنوستها ولطفها ودلالها وجمالها، فقدت حتى أنوثتها ومعنى الألفة والتضحية والمآنسة بين الناس، فقدت عنوستها وفرصتها في الزواج كقيمة إنسانية واحتياج وجداني ونفسي.

بكيت بعدما فقدت عنوستي

المقدمة

اخترت لهذه الرواية أن تكون صوتًا من أصوات الأدب السوداني المعاصر، ينهل من السرد الواقعي، ويتكئ على الشجن الإنساني العميق، والذي نعيشه كل يوم في بيوتنا ونمارسه – بوعي أو غير وعي – مع أهلنا واحبابنا، فهي محاولة لرصد الانتهاكات الصامتة ضد الفتاة الشرقية عامة والسودانية على وجه الخصوص تلك التي ترتكب تحت غطاء القيم والعادات والتقاليد، وهي بريئة من كثير مما يُنسَب إليها.

اخترت لهذا النص لغة عربية بسيطة ورصينة تستند إلى التراث العربي والإسلامي، وتستمد قوتها من الوجدان الشعبي والقيم الدينية الرشيدة التي تكرم الإنسان ولا تذله، وتحثه على التفكير والتدبر لا على التسليم الأعمى، فالتقليد الأعمى ليس من الدين

والتسليم المطلق لغير الحق، ليس من الحكمة والعادات التي كانت مناسبة لزمان ما قد تصبح اليوم عائقًا أمام مجتمع يريد الحياة.

كنت ولا زلت أؤمن بأن الأدب رسالة تتجاوز حدود الجمال اللغوي إلى ملامسة هموم الناس وكسر القيود التي تخنق، وفي هذه الرواية احاول رفع شأن القيم، وإعادة الاعتبار للأصوات التي حكم عليه بالصمت تحت وطأة العادات، أرواحهم الجائرة، لقد استمعت خلال سنوات عملي لعشرات الفتيات اللواتي فاتهن قطار الزواج، أو فاتهن الناس لأسباب لا تمت للمنطق ولا للدين بصلة، فصارت الواحدة منهن عانس – بايرة –كبيرة – فاتتها الفرصة، وأصبحت قيمة المرأة مرتبطة بالزواج لا بكرامتها أو عقلها أو عطائها.

هذه الرواية ليست قصة امرأة واحدة، بل مرآة لقهر طويل وخذلان موارى بالصمت، وهي شهادة على مجتمع يقدس المظهر ويمهل الجوهر.

اشتمل النص سبعة أقسام أساسية وهي:-

القسم الأول: سورة العصر والتواصي.

القسم الثاني: تمهيد لموضوع العنوسة والأنوس والأنوثة وطرح بعض التساؤلات.

القسم الثالث: القصة الأولى (صديق الأخت).

القسم الرابع: أصل لفظ "آنسة" وتاريخ استخدامه.

القسم الخامس: القصة الثانية (زميلتي التي لم تتزوَّج).

القسم السادس: القصة الثالثة. (المرأة التي أنكرت الزواج والرجل.)

القسم السابع: خاتمة وجدانية وتأملية.

كما تخلَّل الرواية والقصص بعض الصور التي رسمتها أنا وزملائي في العمل روعة بشير من سوريا ونعمة أحمد من الصومال، وهي عبارة عن أداة لتنفيس المشاعر، وفعلًا تحمل كل لوحة رسالة عميقة من المشاعر الصادقة والثقيلة، التي انتقلت إلينا من خلال تلك التجارب.

قال تعالى

(بسم الله الرحمن الرحيم).

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .[العصر: ١-٣]

سورة العصر، رغم قِصَرها، احتوت على أعظم قواعد النجاة وأركان الفلاح في الدنيا والآخرة، فقد أقسم الله بالعصر، وهو الزمن

الذي تجري فيه أعمال الإنسان وأحداث حياته، على أن الإنسان خاسر، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فالإيمان لا يتحقَّق إلا عن **علم وبصيرة**، إذ لا يمكن للمرء أن يؤمن حقًا بما لم يعلمه، ثم يأتي **العمل الصالح**، وهو ما يثمره الإيمان الحقيقي، من أداء للفرائض وترك للمحرمات.

أما **التواصي بالحق** فهو تبادل النصح في التمسُّك بالحق والدعوة إليه، والتواصي بالصبر هو المعين على الثبات على ذلك كله، فإن الصبر هو رأس مال الإيمان، كما أن الرأس للجسد.

لا يتم الإيمان ولا يصح العمل ولا تستمر الدعوة إلا بصبر عميق وثبات متين

لذلك، مَن أراد الفلاح، ومَن خاف الخسران، ومَن ابتغى النجاة، فليتمسَّك بهذه الأركان الأربعة؛ فهي مفتاح النجاة، ووصية الله لعباده المؤمنين.

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فبماذا أوصيتم بناتكم وأخواتكم العوانس.

."وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"

فهل تواصيتم بالحق والصبر مع **بناتكم وأخواتكم العانسات؟**

ربيناهم على الإيمان، فكنَّ قانتات، تائبات، مطيعات، طاهرات، ثيبات وأبكارًا

ربَّيناهم على العمل الصالح، فأقمن الصلاة، وحفظن فروجهن، واعتززن بالعفاف والتقوى،

وصيناهن بالصبر ولكن **تركناهن وحدهن، في بحر الخسران، يعمهْن في الانتظار، وفي صمت الوجع الطويل**

فهل أدَّينا حق التواصي؟

هل وُفَّينا لهن ما يَصُنّ صبرهن ويدعم إيمانهن في وجه مجتمع لا يرحم، ولا يُنصِف؟

إن التواصي بالحق لا يتوقف عند المساجد والمنابر، بل يجب أن يبدأ من البيوت.. من الأسرة.. من تلك اللحظة التي يُحرَم فيها شاب من فتاةٍ صالحة، أو تُحرَم فيها فتاةٌ من رجلٍ مستقيم، لمجرد اختلاف في الطول أو القبيلة أو الجيب أو الجذور.

عبرك ابعث شكواي يا نافزة آلامي وشقاي

تنفَّست بعمق، كأنها تستنشق أنفاس الحياة من جديد، كدت أحس بحرارة زفيرها الذي يعكس عمق الكبت ثم اتبعتها هدوء وصمت ممتزج بابتسامة تحمل شيئًا من السعادة، رغم أنها في الخامسة والأربعين، سمراء شعرها متدلي على جبينها أسنانها بيضاء براقة ناصعة البياض نظرتها خجولة تداري بها صمتها، ولكن يحكي ويعكس كبرياء بنات أم درمان وجراءتهن وقوة شخصيتهن، وصلت القاهرة منذ سنتين وطاب بها المقام في أحد أحيائها الجميلة في الناهية الجنوبية من النيل، حيث التاريخ والأهرامات واصالة الشعوب النيلية وطيبة شعب مصر سكنت حي الجيزة، نعم هربت من الحرب في السودان لتجد ملاذًا آمنًا وحضنًا دافئًا في الشقيقة مصر، استأجرت شقة غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، يحميها من

صدى القنابل وصراخ الأطفال، ولكن افتقدت فناء (الحوش) السودانة مساحة كبيرة وآمنة ومسورة (بالصريف أ الحصير)؛ أي منسوج من القش والخشب ظله بارد في عز صيف السودان الحارقة الشمس، افتقدت الونس تحت ظل شجرة النيم وقعدة الجبنة في وقت العصر مع لمة الحبان والصحبات، وهي تحكي تفاصيل ألمها ومشاعر الفقد والخسارة لرحلتها الشاقة، فجأةً صمتت ثم ضحكت وقالت *شرُّ البلية ما يُضحك*.

وأنا أتابع تعابير وجهها وحركات جسدها، كنت أرى مزيجًا غريبًا، أحيانًا تنساب الراحة وهي تحكي قصتها، وأحيانـًا يطلُّ من أعماقها جرح غائر يفيض ندمًا وحسرة وبكاءً على عمرٍ ضائع، سألتني فجأة أنا بحكي ليك لي؟ وبفيدني في شنو؟ فأجبتها بهدوء براحتك لو ما عاوزة تتكلمي من حقك.

تنهدت وقالت آآآه.. ياريت لو اتقالت لي كلمة براحتك أو من حقك في وقتها وزمانها ومكانها، أي راحة وأي حق يا راجل يا طيب أنت.

جيت من السودان فاقدة الوطن والبيت والشغل، وحتى الونس... وأهم حاجة ضاعت مني بدري شديد (سنة سنتين عشر – عمري كله) هو الأمل فقدت الأمل فعلًا لأن الوطن ممكن يرجع بعد الحرب، والأهل لو عايشين بنتلاقى، والشغل ما مشكلة طول ما في صحة وخبرة، لكن العمر.. هل بيرجع.

طرحت سؤالها وهي تراقبني بعينيها وكأنها تنتظر ردَّ فعل، أردت أن أخفف عنها مازحًا إياها، بمجاملة واضحة أنت زي الفُل وفي عمر الزهور، والعمر مجرد رقم المنى، وأي زول يتمناك ضحكت

ضحكة عالية، فيها سخرية لاذعة كما تقول: *مابترجع تاني* ثم أردفت الفرص زي الأمل.. بتيجي وتمشي.

فسألتها: كيف يعني؟

قالت:

لما سكنت الجيزة، كان في ولد من جيرانا، خلوق، متربي، بيحترم نفسه وأسرته، أصغر مني بسنة، لكن شكله أكبر، كان يناقشني، يوجَّهني، ويساند إخوتي، عرفت إنه غير متزوج، ورغم صداقته ونُبله، كنت أتعامل معاه بحذر وأدب، لا سلام باليد ولا مجاملة في الفيسبوك، خوفًا من الفتنة، وصونًا للقيم.

آه – آه– آه بتزود الآلام

وفي يوم، أخته جاتني وقالت: "أخوي بيفكر يرتبط بيك، وإنت أول وحدة تدخل قلبه، وعايزين نعرف رأيك". قلت لها: "هو في وقت للتفكير؟ أنا هيِّن، بس المهم رأي أهلي".

فابتسمت وقالت: أصيلة ومتربية وبت ناس.

وبعد يومين، يوم جمعة بعد المغرب، رن الجرس، فتحت الباب، فإذا به واقف مع أخته، استقبلهم أخوي، ودخلوا الصالون. وأنا كأي عروس، تبسمت على استحياء، ومشاعري تختلط بين خجل وأحلام بعيدة: فستان أبيض، زفة، رقص، وزغاريد.. كأنني عُدت عشرينية أسمع كلمات الغزل *يا عسل.. يا نسمة ماشة.. يا نجمة..* أحسست أن المكتوب قد آن أوانه.

لكن فجأة، كل شيء انهار، والدي -رحمه الله- أوصى قبل وفاته أن أتزوج من أولاد عمي فقط، ورغم أن النصيب ما جاء من جهتهم،

وكانت وصيته الأخيرة: "المصريون ما يتزوجونكم". وهكذا، رفضوا إبراهيم لأنه ابن مصري.

قبل أن يُقال الرفض جهرًا، كنت أحدث نفسي: "لولا إرادة الله، هل كنت سأقبل به؟ هل أستطيع مجاراة المصريين؟". لكن القرار جاء صريحًا: لا. ومن يومها، إبراهيم لم يعد ينظر في وجهي، ولم يذكر شيئًا، اكتفى بالصمت احترامًا وتربية.

رضينا بالهم.. والهم ما رضي بينا، رجع هو لحياته وربنا يوفقه ببنت حلال، وأنا رجعت لخيبة أمل جديدة.

من أين أتى عبدالله البستاني بمصطلح آنسة؟

آنسة هي كلمة احترام تُنادى وتوصف بها المرأة غير المتزوجة، ابتكر هذا اللفظ عبدالله البستاني لترجمة اللفظ الفرنسي المقابل " مادموزيلMademoiselle " وقد رَفضَ لقب الآنسة بعض اللغويين؛ لأنه لم يُذكر في المعاجم القديمة، ولأن المتكلم لا شأن له بالمرأة المخاطبة سواء كانت متزوجة وغير متزوجة وذكر اللفظ في المعجم الوسيط، كما ابتكر عبد الله البستاني لفظ «عقيلة» المقابل للفظ «مدام» لوصف المرأة المتزوجة، وجمع آنسة آنسات أو أوانس وليس لكلمة آنسة لفظ مذكر للرجال غير المتزوجين، وكذلك في كثير من اللغات، يستعملون لقبًا للمرأة غير المتزوجة فقط لا للرجل، وحين تُخاطَبُ الجموع، يبدأ بعض المتكلمين بندائهم قائلًا «سيداتي آنساتي سادتي، وكان مصطفى كامل أول من استعمل هذه العبارة حين لاحظَ عنده حضور نساء، وكانت النساء قبل ذلك قلَّما

يحضرن لمثل تلك المحافل، وفي اللغة الألمانية يقال للآنسة «فرويلاين او فراون frauen" وفي اللهجة السودانية وبعض اللهجات العربية يقال فلانة أنست بمعنى فاتها قطر الزواج بسبب كبر العمر، أو لأن أقرانها تزوجن وأنجبن أطفال وهي حتى الآن ليس لها زوج ولا مقترنة بخطيب أو عشيق أو حبيب، أو لم يطرق بابها خطاب سواء كان من الشباب أو غيرهم من معشر الرجال، ثم أصبحت الكلمة عانس بالعين وعوانس لتضاف إليه سمة تلازم الوصمة بتلك الفتاة التي حفظت نفسها وتنتظر قدرها هي موصومة بالعنوسة .

لماذا أنتِ يا أيتها العوانس؟

عذرًا عزيزي القارئ، سيداتي آنساتي سادتي، على هذه المداخلة التأصيلية ذات الطابع الأيديولوجي ولكن ليس لتقديم نصحي وإرشادي لكم ولا لتصويب قيمكم الإيمانية، وأحكم إليكم بنقصكم للإيمان، وإن كنت قد أصبت في ذلك، فربما بمحض الصدفة وحسن حظي، ولو لامس كلامي جروح مآسيكم أو أصابكم بمكروه فلكم العتبى حتى ترضوا، ولكن لأن سبب العنوسة والتأنس ربما أحيانًا لأسباب واهية وبسيطة وغير مبررة، لو أدركت في حينها لتغير الكثير من العلاقات الاجتماعية والظواهر الضارة بالمجتمع .

سألته أن روية في قصتي فأجابني بقصة أكثر إيلامًا.

تحدَّثتُ إلى أحد الآباء ذات يوم، وسردتُ له قصة مؤلمة عن فتاةٍ فقدت الأمل في الزواج، وسألته ما رأيك في هذه القصة؟

فإذا به يجيبني أن قصة أشدّ إيلامًا .

حدثني عن صديقِه، وكان يوصفه بأنه توأم روحه، وصديق عمره، وأخلص الناس إليه وإلى أسرته، قال إنه كان يُكنُّ له من الاحترام والمحبة ما يجعله يهتم ويحمي أخواته وكأنهن شقيقاته من دمه ولحمه، ثم أضاف بصوتٍ متهدج:

كان أحرص على أخواتي مني، وكنت كثيرًا ما أتمنى لو كانت بيننا صلة دم، تمنَّيت أن يتزوج بأختي فلانة، فهي تشبهه في الطبع، والروح، والنقاء.

فسألته مباشرة:

هل رفضها؟

أجاب بثقة:

مستحيل أن يرفض لي طلبًا.

ثم عكست السؤال:

وهل رفضته أختك؟

فأجاب بسرعة وقال كيف ترفض أختي من كانت تتمنَّاه لسنوات؟ وأفنت شبابها تنتظر إشارة، أو حتى كلمة منه.

فسألته باستغراب:

إذًا، ما الذي حال بينهما؟

قال وهو يتأمل وينظر إلى بعيد وكأنه سرحان أو شارد بخيال طيف وأسراب الحسرة والندم لسنوات وسنوات.

فأجاب: الاحترام! أدهشني ثم أردف وقال: نعم، لقد احترمني واحترم صداقتنا وعِشرَتنا، لم يُرِد أن يُساء فهم طلبه، أو يُفسَّر خطأً، فترددت لسانه وتثاقلت نيَّته، ولم يُصارحني قط بأي مشاعر تجاه أختي.

ثم صمت، قبل أن يكمل بصوتٍ مكسور

كم ندمت، عندما اقترحتُ عليه ذات يوم عرض لفتاةً من الحي للزواج منها، فوافق دون تردد، تم تزوَّجها، وبعد زواجه صارحتني أختي بأنها كانت تحبُّه كثيرًا منذ زمن بعيد، وأنها انتظرته كثيرًا، وانتظرت ذاك اليوم الذي يتقدم مصطفى لخطبتها ويمسك بطرف يدها وهي ترتدي فستان زفاف أبيض، وترتمي في أحضانه تحت اصوات الدلوكة وجلجلة الزغاريد تعم المدينة، لكن حينها كان كل شيء قد انتهى، فات الأوان، وضاعت فرصة الحبِّ الصادق؛ بسبب الخوف من تفسيرٍ خاطئ، واحترامٍ زاد عن حده،

وعلَّق في نهاية حديثه:

اليوم، فهمتُ معنى قول الله: (وتواصوا بالحق).

فالحقُّ لا يُختزَل في الوعظ والكلام العام، بل يشمل تواصينا مع من حولنا في اللحظات الحاسمة؛ لأننا حين نصمت قد نضيِّع فرصًا لم تتكرَّر، أو نخشى من ظنون الناس أكثر من سعادتنا، لهذا قال النبي ﷺ

"إذا جاءكم مَن ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير".

هل تعلم لماذا لم أتزوّج؟

قالت لي إحدى زميلاتي الفضليات دون أي مقدمات أو مناسبة

هل تعلم لماذا لم أتزوَّج؟

فأجبتها، بقدر اندهاشي من السؤال بسؤالٍ

وهل هناك ما تريدين أن تخبريني به؟

فاسترسلت في حديثها بصدقٍ شعرت به، وألمٍ لمسته في صوتها، تكرِّر في كلماتها مرارًا.

قالت:

لم أتزوَّج، رغم أن أبواب الزواج كانت مفتوحة أمامي، والخيارات متاحة، لكن زواجي كان مرهونًا بالكثير من الأسئلة والإجابات؛ كان مرهونًا بأهلي، وأسرتي، وصديقاتي، وأهل (الحلّة)، بل حتى رأي القبيلة والرأي العام.

واستمرت تسرد قصص الخُطَّاب الذين تقدموا لها، وكيف رُفضوا لأسباب سطحية أو واهية.

رفضوا أحمد؛ لأنه قصير القامة، وبكل وقاحة قالها لي عمي كيف تتزوجي بهذا الشاب قصير القامة كيف سيحميك ويدافع عنك وعن أولادك في الشارع.

وأبو بكر اترفض؛ لأنه من خارج بيئتنا، أبي قال لي أخواتك تزوجنَّ من خارج الأسرة أنتِ الوحيدة الفضلتي لازم ترفعي راسي وتتزوجي أولاد عمك أو على الأقل من العائلة.

أما عبدالعزيز اترفض؛ لأنه حديث التخرج، ولم تتضح معالم مستقبله بعد.

محتاج يجد شغل ويعمل فلوس وبيت ويأسس نفسه، بعدين يفكر في الزواج.

أكيد ده عاوزك لأنه عاوز يستقل أهلك ومالهم ونفوزهم كيف نرضي لبنتا كده، أما خالد، فرفضوه فقط لأن أمي لم ترتاح لوالدته، قالت أمي وبالفم المليان وبغريزة نسائية سودانية واضحة .

(سجمي) تعبيرًا عن التعجب والاستغراب من الأمر، آخر الزمن أنا أناسب فلانة، وذكرت اسم أم خالد.

يعني كل ما أمشي بيت بنتي تصابحني اموا السجمانة والرمدانة، والله لو تتزوجي طارق وطارق هذا شخص من ذوي الاحتياجات الخاصة، ويطلق عليه في الحي بطارق المعتوه سخريًا واستحقارًا به أي شخص ليس له لازمة، إحدى الممارسات التي توصم الشخص لشيء وهو غير مسؤول عنه.

وقالت لي تتخيل ما مررت به، وهي تكمل حديثها .

وضحكت ضحكة موجوعة، تتخللها مرارة سنين، ثم أردفت:

كنت جميلة، أنيقة، ناعمة، سمراء بلون القهوة، بعيونٍ حالمة، وخدود نديِّة، وغمازات في الضحكة والابتسامة، كان يُنادى عليَّ بـ (ست الحُسن) في الحي، وكان الشباب يلاحقونني بنظرات الإعجاب، وكان أهلي يفتخرون بي ويضربون بي مَثَلًا في الأدب والاحترام

ثم انكفأت نبرتها إلى الحزن، وقالت

لكن نفس هذا الفخر هو ما ضيعني وضيع شبابي ومستقبلي، حين كان هناك من يطلبني بالحلال، كان إخوتي يطردونه قائلين: (أختنا ما اتربَّت في الشارع عشان تجي تخطبها ساي.)

حتى الذي أحبني حبًا صادقًا، تراجع حين وجد أن أخي يرفضه دون سبب، ولم يملك الشجاعة لمواجهته، تزوَّج من بنت خاله، احترامًا

لرغبة أسرته، لكنه ظل يحبني، قال لي بعد سنوات إنه كتم حبه في قلبه، حفاظًا على العلاقة بين العائلتين.

ثم تنهدت:

أنا لم أطلب أكثر من رجل يخاف الله،

ويقدِّرني كإنسانة، لكنهم كانوا يبحثون عن نسب، مال، شكل، مستوى، كأنني صفقة أو سلعة تُقاس بمقاييس السوق، لا بمشاعر الإنسان.

ثم سكتت قليلًا وقالت بنبرة مكسورة:

الآن، لم أعد تلك الجميلة المتوهجة، أنا في الخامسة والثلاثين، وقطار الزواج مضى، ضيَّعت أجمل سنين عمري انتظارًا لموافقة الآخرين، والآن، لا أحد يسألني حتى عن أحوالي.

وختمت لم افتقدت فرص الزواج،

بل فُرض عليَّ أن أرفضها باسم القيم والعادات، وكأنني ضحية مجتمع يخشى الحب ويهاب الصراحة.. فما ذنبي؟

وللأسف الآن أصبحت في نظرهم عانسة بايرة مشئومة عديمة الحظ موصومة بالفتاة التي رفضت نعيم حظها وافترت على نعمة جمالها.

الآن تتوسد وسادتها وتتضرع لله خفية وهي تجهش بالبكاء ليلًا في غرفتها وحيدةً ولسان حالي يقول يا ريت اللي جرى ماكان، ألا ليت الشباب يعود يومًا، وحينها سيكون لي رأي واضح وصريح للناس بأنني من يتخذ قرار نفسه مع مراعاة لمخافة الله واحترام الناس والأقربون وأهلي ليس إلا .

راجع التفكير في دورك كأب أخ، أم، أو حتى كصديق.

هذه القصة مثال واضح لمدى تأثير **الوصاية الأسرية المُبالَغ فيها** على قرارات الزواج

تُظهِر كيف أن القيم والتقاليد حين تُفهَم بشكل خاطئ قد تُفضي إلى ألم دائم، حتى وإن كانت النوايا طيبة.

قالت بألم

وكنت مؤدبة ومحترمة كنت مضرب مثل في الأدب والأخلاق، ومبعث اعتزاز وفخر لأخواني وأسرتي، بس أنت عارف ؟

(على فكرة كانت تردد هذه العبارة باستمرار، وأول ما تسألني هذا السؤال برتبك لأني بتوقع في مصيبة بعده) وأكملت " فخر وعزة أهلي ده اللي ضيعني، وضيع شبابي، بس ما خلاص عدة وانتهى.

زمن كنت الساس والرأس زمن كنت الروح والأنفاس لكل الناس، أتخيل فلان " كان مستعد يعمل أي حاجة عشاني وبتحدى أهله وكل الدنيا ليكسب خاطري ! لو سلمت عليه ولا نظرت لي (ساي) ناهيك لو بعد النظرة ابتسامة " الود يتجنن وبكل نفس في الشارع برقص وبيغني وبكتب كل الكلام ألفي الشعر وفي العشق والغرام .

دي أنا القاعدة قدامك دة تتخيل.

وأخواتي بكل بجاحة وقلة أدب يقولوا لي نحن بنتنا متربة أنت شفتها وين ولا عرفتها من وين؟ أمشي تاني ما نشوف وشك هنا تاني، أتخيلت هو محمد دة السالوا من رباية أختوا منو، الراجل قال عاوزني بسنة الله ورسوله عاوزني كدة ما سألهم من أدبي ورباية ولو كان عاوزين حق التربية برضوا كان مستعد يدفعه ليكم .

قالت الكلام بمرارة كان أحد إخوانها يجلس معنا .

والمشكلة فيهو هو السجمان ! بعد سنين سالت عليه عرفتوا أتزوج بنت خالوا لي قال عشان ما يعمل لي مشكلة مع أهلي احترم رغبتهم (وكتم حبي في حشاه) وعايش مع بنت الناس وقلبوا موجوع بل سايب قلبوا معاي " قلبك أعمل بي شنو يا سجمان وبفيدني في شنو، وبعد ما تخرجت من أعرق الجامعات واشتغلت رغم إن أهلي كانو ميسوري الحال ولكن برضو لم أتزوج . عرفت السبب؟

سالتها فبكت

لماذا لم تتزوجين حتى الآن وأنتِ حسب رأي لديك كل مقومات الزواج .

وحينها علمت بأنني تجاوزت بعض الخطوط الحمراء وعزفت على ذاك الوتر.

وضربت على وتر الألم، وأتمنى من كل أب وأم واخ واخت عن يفتحوا بعض الأبواب الموصدة؛ لأن خلف تلك الأبواب المغلقة محن السنين، وكل الضحايا خلف تلك الأبواب المغلقة ومقفل عليها بطبل، ولكن ما أوهن هذا القفل بمجرد لمسه أو ربما الإشارة إليه قد ينهار ويتهاوى فتاتها، لترى ونرى الحقيقة المؤلمة وأنت من يقف وراء هذه المآسي والآلام، أنت أيها الأب الجليل والأخ الشقيق وسند ظهرها وحامي شرفها، نعم حميت المظهر الاجتماعي وهتكت قيمتها الإنسانية، وتركتها جثة حامدة بلا حراك ولا مشاعر، واليوم حاولت فتح نافذة من تلك الأبواب لترى أنك من تسبَّبت في كبت مشاعر أختك او ابنتك رغم تماشي تلك الرغبات وفق شرع الله وسنة رسوله، ولكنه دون هواك ورغباتك، أنت من أفقدت بنتك أو أختك قيمة أحلامها طالما حلمت يومًا بأن تكون زوجة صالحة وأم فُضلى لأبنائها وفلذات كبدها .

نعود إلى سبب بكائها " فقالت لي أسال أو وجه هذا السوء إلى أهلي (أبوي – أخوي – أعمامي ...) وأضف إليهم تساؤلاتي هذه، وقل لهم " منو القال ليكم أنا محتاجة زوج يكون ود ناس – ومنو القال ليكم أنا عاوزة واحد يكون ود حلال اي ابن حلال – ومنو القال ليكم أنا عاوزاه من اسرة محترمة أو ليه حسب ونسب وأصل وفصل – ومنو القال ليكم عاوزاه عندو مال – وخريج جامعي ولديه مكان مرموقة – منو القال ليكم عاوزاه يكون وجيه وشكلو حلو ووسيم – ومنو القال ليكم زوقي لازم يوافق مزاجكم وهواكم وأرثكم وثقافتكم .....؟

ثم أزرفت الدموع دمعة فدمعة ثم غرقت في دموعها بحرقة ونهم أقلقتني حتى كدت أبكي وحسيت إلى أي مدى هي تعاني من جراحات الزمن الجائر ولكن من الذي وراء كل هذا؟ للأسف هم من أنجبوها – وربوها وبذلوا قصاري جهدهم في حفظها وصونها وتربيتها وعكس جوهرها ومعدنها النفيس للناس . وتناسوا أن

الأصل والجوهر تموت بحسرتها كمدًا بعدما حفظت لهم حقوقهم وبيضت وجوههم وماتت بحسرتها وألمها وهي على قيد الحياة تمشي وتبكي، ولكن لم ولن تستطيع يومًا أن تشكي . هل تشكيك أيها الأخ النبيل؟ هل تشتكيك أيها الأب الفاضل؟ ولمن تشتكي، حافظت على شرفك ومظهرك من أجل مكانتك عند الآخرين فكيف أشتكي إليك بعدما كانت رمزًا لعزتكم ومصدر فخركم؟

وآخر سؤالها لكم هو ماذا جنيت لنفسي بعدما فعلت كل ما بوسعي لحفظ قيمكم وتطلعاتكم؟ هل بإمكانكم عن تجدو لي زوجًا بما ترونه من مواصفات؟

زوج يتفهَّم تضحياتي ويتقبلني ويتزوجني كزوجة مخلصة لأهلها وقيمها وعاداتها ومجتمعها، زوج يحس بي وأحس بمعنى الحياة الزوجية معه حتى في آخر أيام عمري.

ولكن توفي والدي وكنت تاج رأسه وتركني عانسة، فقدت رونقها وازدهارها وجمالها وعمرها وشبابها، ولم أتزوج، ولم يحظَ بشرف رؤيتي وأنا ألبس فستان فرحي الأبيض، كما لم يحظِ برؤية فارس أحلامي الذي تمناه لي وهو يمتطي الحصان الأبيض ويترجل أمام بيتنا بكل كبرياء وفخر لأنه سوف يتزوج ببنت الأكابر أخت فلان وبنت فلان، وتركني.

وكبر أخي وانشغل بمسؤوليات أولاده وزوجاته الثلاث، ونسي بأن له أخت مخلصة ضحت بكل فرص حياتها لأجلهم ولأجل صون مكانتكم الاجتماعية؛ حتى لا يُقال أخت فلا فعلت أو ترك.

أنها دموع الندم والعتاب وجلد الذات والخوف والحسرة وعدم الحيلة، بكت بكل حرقة وألم كأنها ترد لكم جميعًا، ولسان حالها يعبر عن كل عانس . فاتها قطر الزواج يومًا لأنها لا تملك الشجاعة لتعبر عن رأيها وتشارك في اتخاذ قراراتها المصيرية؟

بكت وأبكتني كثيرًا، وحسيت بعمق ألألم ولكن ليس لي رد على أيٍّ سؤال، وتركت الأمر لكم لعلكم تحسوا بمن حولكم وهم يموتون بحسرتهم وجراحاتهم الأليمة، ولا أملك إلا تذكيركم بقول رسول الله صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه " رواه الترمزي وغيره .

أشكو إليك اضطراب خواطري فأبحري بها إلى حيث الغيوم والأمواج بعيدًا ما شئت.

مافيش رجل في حياتي

ذكرتني المثل السوداني البيقول

"الكديس لو ما لحق اللبن بيقول عفن " أي مَن لم يدرك الشيء أعابه،

هي عانس وانس؛ أي فاتها قطر الزواج؛ لأن آنسة يمكن أن يكون لها فرصة متأخرة للزواج، بالرغم من أن الزواج ليس له علاقة بالعمر أو بالهيئة، أو الشكل، إلا إننا في المجتمع الشرقي حسب العادات والتقاليد والثقافة ما زلنا مقيدين بذلك.

هي ما بين أواخر الثلاثين ومنتصف الأربعين من عمرها، ولكن شاهدتي في أوائل الخمسينيات من عمرها، سألتها نفس السؤال المؤلم: "لماذا لم تتزوجي حتى الآن".

رغم إنها فقدت الكثير من مقومات الزواج ومحفزاته وفق مجتمعنا القاسي على المرأة.

فأجابت بحرقة وألم وبصراحة شديدة ومن غير دس أو خوف فقالت:

أتزوج لي؟ ومنو القال للمجتمع هذا المجتمع الذكوري نحن معشر السيدات لازم نتزوج؟ ولي تفرضوا لي رجل في حياتي؟ وأردفت قائلاً (أنا في حياتي ما في حاجة أسمها رجل ولا حلمت يوما بأن يدخل رجل في حياتي ولا مستعد ولا أقبل بأن يفرض لي المجتمع ولا أي قوة حاجة اسمها رجل في حياتي لأن من جواي وقناعتي مافيش حاجة اسمها رجل في حياتي .

فعلمت تمامًا وتذكرت المثل وقد أكون أجزم بأن وراء هذا الرد الهجومي العاصف جراحات وآلام، وأنني ضربت على الوتر الحساس .

واكتفيت بالصمت أبلغ من الكلام ،

وقول الله تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم).

ولكني احترم شجاعتها وجراءتها وقوة شخصيتها، ولكن هل هي كذلك ام مجرد رد فعل ومتاريس دفاعية ..

لماذا أبكاها سؤالي ؟

هذه هذه تجربة تختلف عن سابقتها؛ الأولى كانت تعيش حلم الزواج المؤجل، أما هذه فتمرَّدت عليه تمامًا.

تمثِّل هذه الشخصية نوعًا من **رد الفعل النفسي العنيف** تجاه تجارب سابقة مؤلمة ربما لم تُحكِ أو تُفهَم بعد،

تحمل موقفها رمزية واضحة عن صوت الأنثى التي كُبت طويلًا، حتى خرجة منفجرًا، لا ليسأل، بل ليرفض .

وما زلت أتأمل وأسترسل في تساؤلاتي التي لم أجد لها إجاباتٍ إلا أنها كل مرة تغرقني في أعماق مرارات الألم.

هل كانت ترفض الزواج حقًا؟ أم كانت تبحث عن شيء أعمق من الزواج؟ الاحترام؟ الأمان؟ الشعور بالقبول دون شروط ؟

أن هذه الفئة ليست نادرة او قليلة، بل تتزايد بفعل الأزمات الاجتماعية

والنفسية المتراكمة، مع غياب الدعم الأسري والنفسي الحقيقي.

هذا الختام ليس محض موعظة عابرة، بل هو تلخيص وجودي عميق لما سبق في القصتين،

فأولاهن ضاعت عنوستها وأنوثتها في صمت؛ لأن أهلها لم يتواصوا معها بالحق، لم يسمعوا صوت قلبها حين كان الحب صادقًا، ولا استجابوا حين وجب الدعم والمساندة.

وثانيتها تمرَّدت على كل شيء، حتى على فكرة الزواج ذاتها؛ لأنها لم تجد مَن يصبر معها على فهم ألمها، أو احتواء كتمانها الطويل.

في كلتي الحالتين، **كانت خسارة الإنسان واضحة**، لا لعدم الزواج، بل لغياب منظومة التواصي بالحق والصبر.

التواصي بالحق: أن تقول كلمة الحق في وقتها، أن تنصف ابنتك وأختك حين تُحَب، لا أن تصادر مشاعرها بدعوى الأعراف.

التواصي بالصبر: أن تصبر على قرارات قد تخالف هواك، لكنها توافق ما يُرضي الله، وما يرضي ضميرك كأب وأخ وإنسان.

كانت سورة العصر كافية لتُقيم أمة، لو أننا وعيناها، ولكن كثيرًا من الأبواب أُغلقت، لا لأن الله أرادها مغلقة، بل لأننا نحن من أغلقناها بأقفال الأعراف، والخوف من كلام الناس، والغرور باسم العائلة والهيبة .

آثار فضولي أن أسأله كيف تزوجتها.

طرحت سؤالي المعتاد ولكني علمت وتفهَّمت، لماذا نحن مجتمع ذكوري كما يصفونا؛ أي المجتمع الشرقي العربي والإفريقية، فالذكورة أصبحت سم توصم مجتمعًا بأكمله وليس تصنيف نوعي، وأهمية ملامح ذكورتنا: القساوة، الغلظة، العنفوان، العصبية، السلطوية، الجبروت، اللامبالاة، وهلم جر من صفات لا تمد للإنسانية أو الروح البشرية بصلة،

هي لم تجرؤ لترفضني.

كان مدخله عندما سألت محمد وهو أب لثلاثة بنات وولدين زوجته شابة جميلة عنيقة تزين عنقها وزراعيها بحلي مرصَّع من الذهب الخالص عيار ٢٤ حسب قولها بقيمة لا تقل عن ألف أو ألفين دولار تتجمل بها وهي مع أسرتها الجميلة، ولديها وإحدى بناتها وزوجها العم محمد الذي بلغ من العمر حوالي ستين عام .

بسيارة مارسيدس، واضح عليهم البهجة ودفء الأسرة المحبة لبعضهم البعض، سعداء وميسوري الحال ومستوى عالٍ من القبول والرضا.

ولكن تفاجأت من رده عندما باقتني بقوله وأمام أولاده وزوجته إياها بعدما نظر إليها في سويداء عينيها بعناية وعجرفة ونوع من الاستخفاف بها أو بكبرياء واضح بدوره كزوج كامل ومتكامل، ثم قال:

هي كانت تجرؤ ترفضني، ودون مراعاة لمشاعرها قال عندما تقدمت إليها كانت بنت عادية فأعجبت بها، فطلبتها من أبيها وأسرتها ووافقوا فورًا دون الرجوع إليها حتى لأني كنت راجل يملأ العين وبختها لقتني قدامها.

ولم تعرف عني الكثير حينها إلا بعد الزواج وكل ما كانت تعرفه هو أنني فلان ابن فلان، ومازال يتفاخر بنفسه وكبريائه وقال لكني

ما قصرت معها وعزيتها وعزيت أهلها، وحتى الآن عشنا أفضل عيشة لأنها وجدت كل شيء متوفر وجاهز.

ورقم مستوى الرضا والحب والجو الأسري الجميل الذي كان واضحًا في ملامح جمع أفراد أسرة محمد ألا انه لم يذكر للحظة غير نفسه وكبرياءه وشهامته وفضله فيما هم فيه، ولم يذكر زوجته بكلمة واحدة تقديرًا لدورها وامتنانًا لها وحبها وجمالها وإخلاصها، ووقوفها معه ودورها في تربية الأبناء وغيرها .

طلقتها لأنها ليست بعذراء.

قالها أستاذ كمال بلا تردِّد، رجل تجاوز الخمسين واسع الثقافة رزين الملامح يتحدث بلباقةٍ، رجل خبر الدنيا وعرف طرقها المظلمة قبل المضيئة، كان يجلس أمامي مرتديًا بدلته الزرقاء الأنيقة وقميصه الأبيض الناصع، وربطة العنق الحمراء المرصَّعة بنقاط زرقاء كأنها تحمل شيئًا من تناقضات حياته، وفي يده اليسرى دفت أسود يشبه سجلًا ثقيلًا يحمل أسرارًا أكثر مما يحمل ملاحظات .

بدأ يحكي وكأنه يفتح دفاتر عمرٍ ظل يخفيه خلف ابتسامته المهذبة:

كنت عربيدًا، نعم عربيد كما يقولون جربت كل العلاقات السهلة منها والمهينة، وكانوا يقولون لي خاطف قلوب العذارى، ويلقبونني روميو، كنت أتقرَّب، أغري، أثبت قدرتي، ثم أتركهن

مكسورات كأنني انتصرت، حتى اتهمني الناس بالمريض، مرض الرجل الذي يتلذَّذ بأذية القلوب.

توقف قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة باهتة أقرب للمرارة:

وعندما قررت بعد سنوات الطيش والعربدة أن أتزوج على سنة الله ورسوله لم أجد فتاة عفيفة كما كنت أبحث لم أجد ما ظننت أنني أستحقها.

ثم ساد صمتٌ ثقيل:

كنت حينها تتطاير الأفكار من رأسي وتختلط المشاعر وأسأل نفسي هل

أنا غضبان؟ هل يستحق التعاطف؟ هل أثلج صدري باعترافه أمامي رغم جبروته؟

أم هل أشتمه لأرد لهؤلاء الأبرياء كبريائهن وكرامتهن؟

ثم قال بصوتٍ متردد:

هل تظن بأن الله يعاقبني بما فعلت ببنات الناس؟ كلما أبرِّر لنفسي لا أسمع إلا قوله تعالى: (إنما الطيبون للطيبات).

ولم أستطع حتى إكمال الآية.

كان صوته هذه المرة ضعيفًا يشبه صوت رجل يرى نفسه في مرآة الحقيقة لأول مرة،

ورغم أنني تعاطفت مع اعترافه إلا أن سؤالًا ظل يطعن داخلي:

كم من البيوت عاشت الألم بسبب رجل حمل فكرة مثلت فكره؟!

كم من فتاة فقدت عذريتها وشرفها لأن رجل تسلَّى بعرضها؟!

كم من بنت بريئة دُفِعت للعار لأنها فقط ضحية لرجل يلهو؟!

وكم من امرأة صالحة حُكِم عليها بالعيب لأنها لم تستطع الرد أو الدفاع أو تفسير قدرها؟

هكذا..

اختم هذه المجموعة بقصة إنسانية ليست بعيدة عن الكثيرين منا، قصة عشناها في بيوتنا أو سمعنا عنها أو ربما كنا جزءًا من صمتها، سأرويها لكم بعد الآن،

قصة بنت المرأة المعيوبة، قصة ذلك الوجع الذي يتوارثه الأبناء بلا ذنب،

القصة التي ترويها الأمهات بصوتٍ منخفض، ويتهامس بها الجيران، ويحملها الأبناء كقدرٍ لا يفهمونه .

فقلت له:

هناك مَن يدفع ثمن أخطاء عيره يا أستاذ كمال، ليس كل مَن يشاع أنها معيوبة هي كذلك، أحيانًا المجتمع هو المعيوب لا النساء.

نظر إليَّ مطولًا، وكأنه يسمع مفهومًا جديدًا لأول مرة.

فقلت:

هل سمعت بقصة بنت المرأة المعيوبة؟

اقترب بجسده كمَن يستعد لسماع حكم سيجعله متهمًا أو بريئًا.

فواصلت:

في بيوت كثيرة فتاة لم تخطئ، ولكنها ورثت العيب والخطيئة من أمها،

أم ظلمتها الشائعات، فصارت ابنتها تتحمَّل اللوم والهمز والغمز دون ذنب،

في مجتمعاتنا العيب يورَّث، أما الحقيقة فتُدفَن.

أخذ نفسًا طويلًا، وقال:

ربما كنت أنا مَن يصنع أمثال هذه القصص،

ربما كنت واحدًا من الذين يزرعون وصمة فيحملها الأبرياء.

لم أعلِّق،

كان يكفي انه بدأ يرى نفسه.

وقف ببطء، وحمل دفتره الأسود، وارتدى وقاره كما يرتدي بدلته، ولكنه هذه المرة بدأ أصغر وكأنه خسر شيئًا كبيرًا، أو اكتشف أنه لم يكن كبيرًا كما ظن .

توقَّف قبل أن يغادر، وقال:

لو عاد بي الزمن لبحثت عن امرأة صالحة لا امرأة عذراء،

الطيبة ليست غشاء، الطيبة روح.

غادر المكتب تاركًا خلفه رائحة اعترافٍ تأخَّر كثيرًا،

وتركني أفكِّر،

كم أستاذ كمال يسير بيننا؟

كم فتاة مثل بنت المرأة المعيوبة تدفع ثمن جهل رجل أو شائعة أو كلمة لا ترحم؟

وهكذا يظل هذا الفصل شاهدًا على حقيقة مُرَّة

أن العيب ليس في النساء،

العيب في العيون التي لا ترى، وفي القلوب التي لا ترحم، وفي رجال يتذكرون الدين فقط حين يريدون أن يحاكموا امرأة .

أختم هذه المجموعة بقصة إنسانية نعيشها أو يعيشها الكثيرون في بيوتهم وكنا ضحاياه،

بنت المرأة المعيوبة.

نفاج في قلب القرية، ربما يكون هذا عنوان لرواية قادمة .

لم أكن أتجاوز التاسعة من عمري حين بدأتُ أسمع الأصوات أكثر مما أفهم الكلمات،

أصوات عالية وخشنة، تشبه اصطدام الحطب المبتل تحت هبوب الريح، ثم يليها صوت آخر أعرفه جيِّدًا، صوت السوط وهو يشق الهواء قبل أن يستقر على جسد أحدنا (أنا أو أمي)، لم يكن الليل يملك القدرة على إخفاء صراخ أمي، ولا النهار يوفر لها فرصة لالتقاط أنفاسها.

كانت قرية " أم بادر " إحدى قرى كردفان رغم سماحة الناس وطيب الألفة والمعشر إلا أنها تحكم بالعديم من القيم والعادات والتقاليد، قرية جميلة بيوت من القش وبراح مفتوح، وبشر لا يعرفون معنى الأسرار؛ كل شيء مكشوف.

الجدران منسوجة من القصب والنفاجات بين البيوت تلتصق كأنها ثقوب صغيرة في قلب كل بيت، تسمح بدخول الهواء والكلام حتى اللعنات، وبين تلك الثقوب تسلَّل إلى صدري الجميلة التي كبرت معي مثل لعنة.

" أمك مرة معيوبة بتاعة رجالة ".

لم أكن أفهم معناها، ولكنني كنت أفهم الرعشة التي كانت تسري في جسد أمي كلما اقتربت جارة من بابنا كانت تمشي أمي منحنية الظهر لا ترفع عينيها، كأن النظرات سهام تخاف أن تصيبها، لم تكن تخرج إلا للضرورة وإن خرجت سكنت القرية كلها لتلتقط خطواتها وتراقبها، تبتلعها بصمتها المسموم،

ومع ذلك لم أرَ أمي يومًا تضحك لرجل، أو حتى ترد التحية إلا على عَجل، كانت تعيش في خوف، وتختبئ خلف ابتسامة باهتة لا تشبه البهجة، بل تشبه الاعتذار المستمر .

كان أبي رجلًا ضخم الجسد، له صوت يحلف الناس أنهم يسمعونه قبل أن يصل إلى المكان، يسكر كثيرًا، ويصرخ كثيرًا، ويجلد كثيرًا، ورغم ذلك يصفه أهل القرية بالرجل الطيب المسكين إللي ابتلاه ربنا بمرة مش كويسة.

لم يكن أحد يجرؤ على ذكر إساءته،

كانوا يخشونه أو ربما يخشون سكره،

أما هو فكان يجد في مجلس الرجال عزاءً من نوع آخر،

كأس عرقي، ضحكة عالية، وقصص تُحكى على أجساد الآخرين،

وأحيانًا في ذروة سكره كان يضحك وهو يروي فضيحة أمي، ويقسم أنه لو لم يكن رجلًا صبورًا لذبحها .

كنت أراقبه من خلف الباب المفتوح، أرى ضيوف مجلسه، لأحدهم يدان خشناوان ويجلسني على فخذيه كأنني لعبة، وكنت أحاول أهرب لكن كان والدي يضحك وكان الأمر عاديًا.

كبرت، وصرت فتاة جميلة تشبه أمها، مزيج من الحياء والضوء، شعري تفوح منه رائحة زيت الكركار الذي كانت تدهنه أمي ليلًا وهي تقول:

" جمالك ده ما لي الناس، جمالك ليك .. ولي شرفك ".

لكن العالم لم يكن يرى الجمال،

كان يرى شيئًا آخر.. بنت المعيوبة،

الشباب يغازلونني في النهار ويتهامسون عني في الليل،

كل كلمة كانت تحمل ظل أمي فوق رأسي، كان ظلًا ثقيلًا لا أعرف لماذا خُصِّص لي .

وفي الخامسة والثلاثين من عمري ما زلت بلا زوج،

لا لعيب فيِّ، بل لأن أحدًا لم يستطيع أن يرى الحقيقة خلف الضباب الذي صنعه المجتمع حولي وحولها (أمي)

وفي ليلة واحدة تغيَّر كل شيء،

كان أبي سكرانًا كالعادة، لكن هذه المرة كان مثقلًا وكأنه يحمل خمسين عامًا فوق كتفه، نظرت إليه وقررت أن أقول كل ما كتمته:

أمي فضحتك ولا أنت الفاضح روحك،

شنو عملت لما عم إبراهيم تحرش بي قدامك،

عملت شنو لما خضر مسكني من صدري،

عملت شنو لما جارتك قالت لي بنت العاهرة،

عملت شنو .....؟

صرخت .. وصرخت ... حتى شعرت أن قلبي يخرج من صدري،

ولأول مرة من ولدت رأيت أبي يبكي،

يبكي كطفل خائف،

يبكي كمن راى الحقيقة فجأة بعد عمر من الهروب،

قال لي بصوت مكسور:

أنا سكرت .. عشان ما أسمع الناس .. وما أسمع نفسي،

وخفت أعيش صاحي وأسمع العار ،

العار البعملو أنا ... وارميهو على المرحومة الطاهرة العفيفة المخلصة النقية أمك.

كلماث نزلت على صدري رغم الراحة وأنا أسمعه لأول مرة.

تمنيت لو سمعته أمي حينها لغرف له وخفف عنها هموم السنين وقساوة الدنيا وجور المجتمع .. لكن الفجر أت بغير ما توقعت

اختفى..

رحل أبي من القرية تاركًا خلفه كلمة واحدة لجارة في أطراف الحي:

اليوم البت الكبيرة كسرتني، ما بقدر أعيش هنا تاني .

ومن يومها لم يعد أحدًا يراه،

لم أعد أبحث عنه،

لم أعد ابحث عن براءة أمي،

البراءة لم تكن تحتاج دليلًا.. كانت تحتاج صوتًا، والآن صرت صوتها.

أمي لم تكن معيوبة

كانت مطحونة، مظلومة ، مُحاصَرة بمجتمع يرى الخطيئة في المرأة ولو كانت ملاكًا، ويتغاضى عن خطايا الرجل ولو كانت الجحيم نفسه .

لم أعد بنت المعيوبة .

معيوبة،

أنا بنت امرأة قاومت العالم بصمت، وماتت مرفوعة الرأس في قلبها مهما حاولوا كسرها.

وفي ذلك الصباح حين حملت مشطي الخشبي الذي تركته أمي وأنا صغيرة أدركت أن الفصل الأول من حياتي انتهى.. وأن فصلًا جديدًا بدأ،

فصل أبحث فيه عن حقيقتي،

عن تاريخ أمي،

عن سر الاتهامات، وعن سبب خوفها العمري من النساء قبل الرجال،

فصل أسير فيه بين أنقاض القرية ونفاجاته بهدوء لأن النفاجات تعرف كل الأسرار .

لمحت بداية الطريق،

رحلة البحث عن حقيقة أمي، يبدأ من بداية رائحة زيت الكركار.

نفاجات في قلب القرية

لم يكن رحيل أبي المفاجئ هو الصدمة الأكبر، بل تلك الحقيقة التي بدأت تتكوَّن داخلي كجمر تحت الرماد

أنني لم أعرف أمي حقًا .كنت أعيش معها وأتنفَّس ألمها وبؤسها، وأستند إلى ركبتيها وهي تمشط شعري، ولكني لم أعرفها،

أي أم أني؟ وأي قلب تحملين في جوفك ؟

لما لم أسألها يومًا لماذا تخافين ؟

لماذا تسكتين؟

لماذا ترجفين كطائر مبلون كلما نادتك امرأة من وراء النفاج؟

كبر السؤال في داخلي حتى صار حجرًا يعترض أنفاسي،

وفي صباح غائم بعد رحيل أبي قررت أن ابدأ رحلة البحث،

لم تكن الرحلة قرارًا، بل كانت ضرورة؛

لأنها الشيء الوحيد الذي يبقيني واقفة

. بدأت من أقرب مكان إلى قلبي .

من رائحة الكركار التي بقيت على المشط الخشبي الذي ورثته من أمي، جلست على الأرض، قرب النافذة التي كانت أمي تجلس عندها أيام المرض،

تأمَّلت المشط، وكأن الخشب القديم يريد أن يحكي لي ما تخبئه القرية، ثم نهضت ورفات طرحتي وخرجت،

كانت شمس الصباح تسقط على البيوت المصنوعة من القش، وكأنها تكشف أسرارها، وكنت أعرف أن أكثر الأسرار تختبئ خلف ضحكات النساء.. وخلف صمتهن أيضًا.

عند بيت بسمات " المرأة التي كانت تخاف أمي

كانت بسمات أول مَن فكرت في أن أزوره، امرأة في الخمسين، لسانها يشبه السكين التي لا تصدأ، وهي نفسها التي قالت يومًا لابنها ابعد من بنت العاهرة.

وقفت عند بابها وطرقت،

خرجت بسمات تنظر إليَّ كما أن الماضي يمشي أمامها، وقالت بصوتٍ جاف:

خير .....؟

قلت:

عاوزة أسأل عن أمي .

تغير ملامح وجهها لحظة وتصلَّبت،

كأن السؤال أخرج شيئًا كانت تخفيه:

أمك كانت سترة أنت مالك دايرة تنكتي الدفاتر القديمة.

قلت بثبات: لم أعرف أنني أملكه؛ لأنه أنا دفاتري كلها اتفتح.

صمتت،

ثم قالت بلهجة فيها شيء من التعب:

أمك ما كانت زي ما الناس قالت، لكن الناس لما تقول حاجة.. بتثبت.

تقدمت خطوة،

قالوا إنها بتاعة رجالة وأني كنت أول من يكرر الكلام ده.

تنهدت بسمات ثم جلست على الكنبة القريبة من الباب وأشارت لي بالجلوس،

وأكملت حديثها: أمك كانت جميلة، والجميلة في بلد زي دا عيب كبير.

.سكتت وأخذت نفس عميق قبل أن تكمل .

مشكلتها ما كانت في الرجال كانت في النسوان.

حدقت فيها ثم سالتها بتعجب كيف يعني؟

قالت وهي تنظر بعيدًا:

أمك كانت شريفة زيادة عن اللزوم، وكانت في نسوان ما عاجبهم شرفها ده.

أكملت رحلة البحث

إلى بيت الحاجة نعيمة والصندوق القديم،

بعد حديث بسمات صرت أبحث عن النساء الأكبر سنًا اللواتي عشن مع أمي في الزمن الذي لا أعرفه.

ذهبت إلى بيت الحاجة نعيمة كبيرة الحي عمرًا، أصغرهم عقلًا، كانت تحفظ تاريخ الناس أكثر مما تحفظ من القرآن، كانت تهتم بأسرار الناس وعمائلهم الوسخة أكثر مما تحافظ على صلاتها.

استقبلتني بابتسامة هادئة ماكرة، وبصوت مبحوح وقالت:

أخيرًا جيتي، أنا منتظراكِ من سنين .

ارتجفت، كأنها كانت تعلم أن هذا اليوم سيأتي،

جلست قربها، وقالت:

أمك كانت مثل العطر، وجودها يغيظ، يغيظ مين يغيظ الرجال؟

هزت رأسها

لا يا بنتي، يغيظ النسوان،

ثم قامت ببطء وفتحت صندوقًا خشبيًا قديمًا قرب سريرها، وأخرجت منه قطعة قماش مطرزة بخيوط خضراء،

وقالت دي كانت لأمك.

أمسكتها فانتشرت رائحة الكركار مرة أخرى، نفس الرائحة التي أعرفها.

قالت الحاجة نعيمة: أمك يا بنتي اتظلمت ظلم شديد ظلم الحسن والحسين، مش لأنها سوت حاجة، لكن لأنها ما سوت حاجة كعبة في حياتها.

ما سوت زي النسوان.. ما شاركتهم في نميمتهم ولا دخلت في خراب بيوتهم ولا مشت في طريقهم.

ثم أضافت بصوت خافض: أبوكِ ساعد في ظلمها.

شعرت بالدم يضرب في رأسي.

ثم قالت الكلام الدايرة اقولوا يليك تقيل.

قلت ليها قولي أنا نفسي أسمع الما اتقال لي طول حياتي .

قالت: الناس اتهموا أمك لانها كانت بتخاف من راجل واحد وبس، رجل واحد كان السبب في كل الحكاية .

اقتربت منها وأنا ارتجف من الخوف وقلت لها: من منوا؟

لم تجب، ولكنها أعطتني اسمين عم إبراهيم وخضر بتاع الدكان.

شعرت بأن شيئًا ما ينهار وشيئًا ما يبدأ.

حقيقة أمي عند صفية

وأنا راجعة إلى البيت سمعت صوت من خلف النفاج بين بيتنا وبيت الجار مبارك،

قالت بهمس كأنها تخشى أن يسمعها الهواء: لو دايرة الحقيقة امشي اسألأي صفية.

صفية منو؟

زميلة أمك وصاحبتها القديمة، كانت أقرب لها من روحها.

وينها؟

سكنت طرف النهر بعد ما اتهموها هي كمان.

اتهموها؟ ترددت الكلمة داخلي كطرق على باب مغلق .

أساليها.. هي الحافظة الحكاية من أولها لآخرها.

سكتت المراة وختمت بكلمة واحدة، أمك ما كانت معيوبة كانوا دايرين يعيبوها .

بداية الطريق الحقيقي

في تلك الليلة جلست وحدي وأمام نافذة أمي والمشط بين يدي،

الصمت يلف البيت، ورائحة الكركار تحولت إلى لغز وخيط يقودني نحو المجهول، كان عليَّ أن اذهب إلى صفية،

أن أسمع النسخة التي لم يسمعها أحد، أن أعرف الحقيقة التي ماتت أمي وهي تخفيها

لأول مرة مُنذ سنوات لم أشعر بالخوف،

شعرت بشيء يشبه القوة، أو ربما يشبه الغضب الصامت الذي يتحوَّل إلى نور.

في الصباح بدأت رحلة البحث عن حقيقة أمي والرجال الذين خافوا منها والنساء اللاتي كرهنها والسر الذي جعلها تمشي مطأطئة الرأس طوال حياتها.

رحلة لن أعود منها كما حرجت.

حين تخرج الحقيقة من قبرها هي الخاتمة التي تمثل بداية الرواية القادمة

لم يكن الليل تلك الليه يشبه الليالي السابقة، كأن القرية كلها كانت تحبس أنفاسها وتنتظر شيئًا ظل مختبئًا ثلاثين سنة أو يزيد .

جلست في فناء بيت خالتي سعاد أمام أكوام الدفاتر القديمة التي جمعتها من بيت أمي ومن بيوت الجارات ومن صندوق خشبي كان أبي يخفيه تحت السرير لا يجرؤ على فتحه.

كنت أبحث عن صفية، أبحث عمن كانت قبل أن يمزقها الناس قبل أن يسرقوا صوتها واسمها وكرامتها، وفي تلك الليلة وجدتها .

وجدت خطابًا مختومًا بالدموع كتبته أمي قبل موتها بعام ولم ترسله،

إلى أبي الحقيقي .. خطاب إلى رجل كان من المفترض أن يكون،

قرأت الكلمات وقلبي يسقط مثل طوبة تُرمى من جبل،

سامحني يا حسين

هربت من أهلي لأني رفضت الزواج من الرجل الذي باعوني له،

أحبوك لأنك علَّمتهم معنى الاحترام، ولكنهم اتهموك بأنك خطفتني، وأنك لوثتني .

فتزوجت من غيرك لأحميك، وخسرت نفسي،

وجدت بعد الخطاب ورقة صغيرة داخل ظرف منفصل عليها كلمات مرتجفة

" لو مات قلبي فاحفروا الحقيقة " .

"لو مات قلبي.. فاحفروا الحقيقة"

وفي صباح اليوم التالي اتجهت إلى خالي لأواجهه بما وجدت، وكان شيخًا عجوزًا يعيش على صدقات الناس، ولكن عينيه لا تزالان تحملان قسوة الماضي .

حين رأى الخطاب شحب وجهه، جلس ثم مسح جبهته وقال بصوت يشبه اعترافات المحتضرين .

ثم قال أمك ما كانت معيوبة، نحن المعيوبون.

وأكمل حديثه: أبوكِ الحقيقي حسين، كان خير الرجال، ولكن القبيلة خافت من كلام الناس وخالفت الحق .

ثم أضاف وهو يبكي:

أبوكِ موته كان بسبب الغبن، ضربوه وقالوا له بتنا ما بتطلع مع زول من برا القبيلة، وأمك كانت بتحبه بصدق .

وكانت حامل منك لما زوجناها غصب،

سقطت على الأرض، شعرت ان كل سنوات حياتي كانت مبنية على كذبة،

أنا لست ابنة الرجل الذي جلد أمي

لست ابنة الخوف،

لست ابنة الوصمة،

أنا ابنة حب ممنوع،

ابنة رجل مات من أجل امرأة أحبها،

وامرأة صمتت كي تحميه .

أخيرًا تغير نظرة الناس انتشر الخبر في القرية كالنار في الهشيم،

النساء بدأن يغازلنني والله أمك كانت مظلومة والرجال صاروا يتحدثون باحترام عن اسمها، ولكن السؤال الذي ظل معلقًا أمامي مثل حبل من نار:

هل ستُمحى الوصمة فعلًا أم ان الماضي لا يتفنن الا في مطاردة النساء؟

وفي اللحظة التي لم اكن انتظرها جاء سامي الرجل الذي طلب يدي قبل شهر ثم تراجع حين سمع كلام الناس في السوق،

وقف أمامي مرتبكًا يحمل في يده دفترًا من دفاتر أمي،

وقال لي بصوت خفيف:

ما قدرت أنام بعدما غرفت الحقيقة،

أنا دايرك بالحقيقة والوجع والألم ولو الناس ما احترموك أنا بحترمك،

لأول مرة شعرت أنني لا أهرب من الماضي بل أمشي فوقه وأكسره،

ولكن

لم أقل له نعم ولم أقل له لا،

وقفت ونظرت إلى السماء التي شهدت كل الجراح، وقلت في سري سأتزوَّج فقط عندما أقرر

لا عندما يغفر لي المجتمع ذنبًا لم أرتكبه،

انتهت القصة هنا ولكن الرواية تبدأ الآن،

صفية ماتت ولكن نهضت من قبرها

ابنتها، لم تعد بنت المعيوبة، بل بنت المرأة التي قاومت قبيلة كاملة والزواج .

النهاية

ليس السؤال لماذا لم تتزوَّج هذه الفتاة؟

بل السؤال الحق **لماذا لم نتِح لها فرصة أن تختار بحرية؟ أن تُحِب بلا خجل؟ أن تتزوَّج بلا إذلال؟ أن تُرَاعى بلا وصاية ؟**

أليس ذلك هو معنى التواصي بالحق؟

ألا يتطلب ذلك صبرًا، صبرًا على كسر عادات ظالمة، وعلى قبول قرارات لا تشبهنا لكن تشبه أصحابها؟

لقد خسرنا كثيرًا من الأرواح والقلوب والعلاقات، لا لأننا لم نعرف الحق، بل لأننا لم نكن شجعانًا لننطق به .

إليكِ نصيحتي أيتها العانسة:

كل فتاة لم تتزوَّج، ليست ناقصة، ولا مكسورة، ولا وضيعة أو ساقطة أو منحلة أخلاقية أو منحرفة،

ربما فقط لأنها **لم تجد مَن يتواصى معها بالحق.. ويتواصى معها بالصبر.**

فأنتِ جميلة ومختلفة ومتميزة، وهذا سبب تفرُّدك، أنتِ غيرهن ولا تقارني بأحدٍ، أنتِ مصدر فخر واعتزاز، فلا تنحني للعاصفة وتنكسري، ولا تضعفي من سخرية الجهلاء حتى تهتز ثقتك بنفسك، عندما كنتِ طفلة صغيرة بريئة مرحة مبعث فخر ووجه السعد لكل أسرتك، وعندما كبرت كنت محطة أنظار كل من حولك، فالأم والوالد والإخوان والأهل والجيران كانوا يبادلون الحديث سرًا وعلانية في يوم سعدك لسعيد الحظ الذي ترتضينه لخطبتك، واليوم رغم عنوستك إلا أنك لا تُقارني بأي فتاة ما زلتي تحملين أصالة

نشأتك القوة والصبر والإخراق والروح المثابرة المؤانسة والحضور الطيب، فعيشي لنفسك، ولا تحترقين من أجل إرضاء الآخرين، فالزوج قسمة ونصيب، ولكن الحياة مستمرة، خُلقنا لنعيش وليس لنتزوج أو ننجب أطفالًا،

فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، جعلها الله لتجميل حياتنا، وداخل كل إنسان يكمن الجمال، فالجمال جمال الروح عشها بحب ورضا أينما عشت وكيفما حييت.

القاهرة مايو ٢٠٢٥

بقلم الكاتب والروائي

بدرالدين تمسة دليل

على شواطئ الرمل ندفن مشاعرنا لنلتقط أنفاس الراحـــــــــــة.

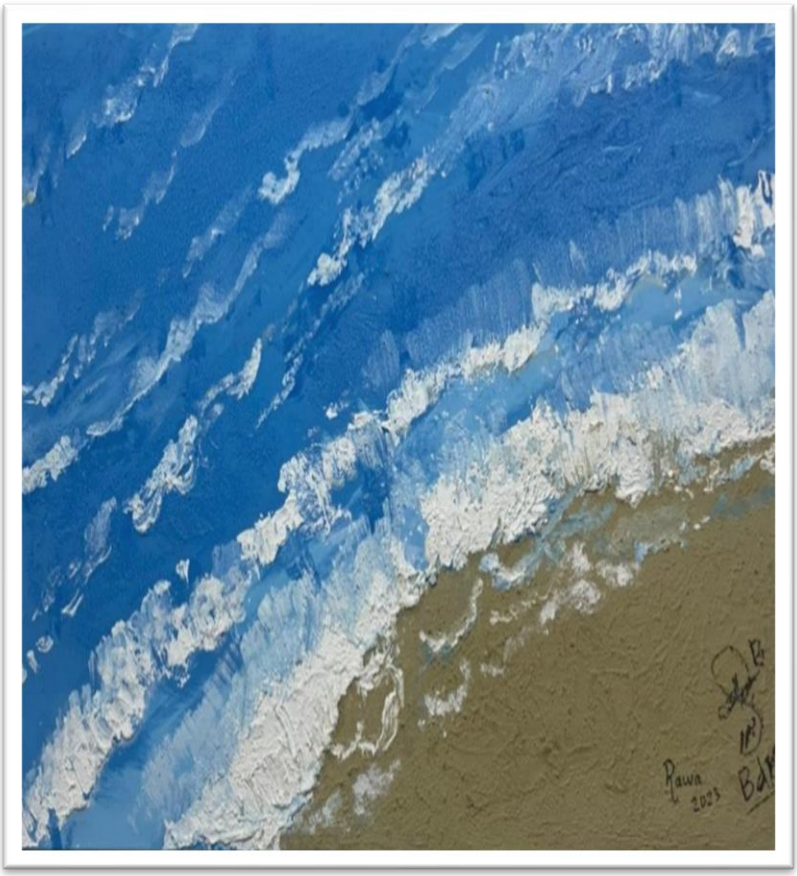

هل ستمحي الوصمة فعلًا أم أن الماضي لا يتفقن إلا في مطاردة النساء

العنوسة ليست شيء يفتقد لنبكي عليه، ولكنه ألم وخذلان عشناه، وتألَّم بها الكثيرون ليست لسوء نية، ولكن بحب ومن الحب ما قتل أن افتقدنا الشورة وتشاورنا في تعدُّد الاختيار.

بدرالدين تمسة